د/عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السدحان

كينيا ارشيف الذاكرة ٧

بدعوة كريمة من الدكتور عبدالرحمن السميط أثابه الله تعالى، ومما أذكره له فأشكره عليه أنه في المكالمة الهاتفية قال لي وألحّ: أرجوك أن تكتب ملاحظاتك على الأمور السلبية، لا أريد المدح والأمور الإيجابية نحن نريد ذكر الأمور السلبية حتى نتلافاها. كرر الدكتور ذلك مرارا، والدكتور السميط نَشِط في المجال الخيري، وجهوده معروفة. لكن قد لا يعرف عنه كثير من الناس أن صدره أوسع من بيته لسماع النقد بل إنه يفرح به، ويتشكر من قائله –سمعت ذلك عنه ورأيت ذلك منه– لأنه أثابه الله تعالى يسعى جاهدا للارتقاء بالعمل الخيري، وله بفضل الله تعالى قبول واسع عند العاملين في الحقل الخيري الإغاثي.

وهنا أقول إن من الصفات الهامة لمن يعمل في المجال الخيري عموما وبخاصة من يتولى رئاسة الهرم في مجال الأعمال الخيرية أن يحرص على سماع اقتراحات الآخرين بل ويفرح بسماع النقد البناء لأن ذلك مما يعين بإذن الله على تكامل جوانب العمل الخيري وتجنب السلبيات قدر المستطاع، ولو حرص القائمون على الأعمال الخيرية بانتقاء أناس –ليسوا من العاملين– ممن عرفوا برزانة الرأي ولهم حظ من العلم الشرعي، ثم طلبوا منهم السفر للاطلاع على المناشط الخارجية، وقبل ذلك عرضوا عليهم المناشط الداخلية. وبعد اطلاعهم استمعوا إلى مرئياتهم لحصل من ذلك نفع متعد للعاملين وأعمالهم والظن إن شاء الله أن هذا لم يغفل عنه عندهم لكن المراد تفعيله بقوة.

أعود إلى موضوع السفر كنا أربعة: د/ إبراهيم، والشيخ القاضي خالد والأخ عامر وكاتب هذه السطور وكانت وقت السفر في -----؟. وكان الغرض من الزيارة المشاركة في دورة علمية خاصة بالدعاة التابعين لجمعية مسلمي افريقيا في كينيا، وكانت دورة مباركة إن شاء الله تعالى لحظت ذلك من تفاعل الحضور في دروسي وكذلك ما سمعت من الإخوة الذين شاركوا في الدورة بدروسهم.

سمع أحد المحسنين أنني مسافر إلى كينيا فأعطاني { أربعين ألف ريالآ }نقدا وقال أعطها لشخص سليم المعتقد له نشاط علمي ودعوي . سبّب لي هذا المال حرجا لوجوده معي أثناء التنقل وكلما دخلنا مركزا وجدت بعض ما يخدش في شرط صاحب المبلغ، وقد غالبني شك أن المبلغ سيرجع معي، حتى كنا في يوم من الأيام في "ممباسة" أظنها تقع على المحيط الهندي، حضرنا حفلا لتحفيظ القرآن أو قريبا منه، ثم خرجت لدورة المياه فنصحني أحد من كان خارج المسجد بعدم دخول دورات مياه المسجد لعدم مناسبتها، ثم أشار إلى مبنى قريب كأنه كوخ كبير وملحق به بعض الحجرات، وهو مبنى متواضع، فذهبت إلى رجل كان عند الباب فاستأذنت بطلب دورة المياه، فأدخلني بعدما أضاء الكهرباء داخل ذلك المبنى الشبيه بالكوخ الكبير الطويل، فرأيت صفا مدرسيا فيه مقاعد خشبية، وفي أحد جوانب الغرفة دولاب فيه كتب، فرأيت كتب العقيدة كفتح المجيد، ومتن التوحيد، ورأيت بعض كتب الحديث، وداخلني سرور عظيم، فطلبت من الحارس أن ينادي مدير المركز أو المدرسة. فقال: إنه دخل بعد الصلاة ولا يخرج إلا

المملكة العربية السعودية – الرياض - جوال:٠٥٠٥٤٦٩٩٤٦ alsadhan7@gmail.com

الفجر، فألححت عليه، فذهب ثم عاد، وبعد مدة جاء رجل ترى على محياه الخير، أظن الحارس ذكره بلفظ شيخ أو ملاّ محمد. فسلمت عليه وشكرته على نشاطه –قد سألت الحارس عن المدرسة قبل مجيئه-. أخذت أتكلم معه –الشيخ محمد-ولم أخبره بما معي من النقود، ولقد اطمأننت لهذا الرجل، ومما زادني طمأنينة أنه أوصاني بأن أكلم بعض الجهات الحكومية الشرعية في إرسال بعض الكتب العلمية، وخص بالذكر كتب المعاهد العلمية الرجيع لتوزيعها على الدارسين وغيرهم، ثم سألته عن دراسته فجمع قبضتيه ورفعهما وقال: –والبهجة على قسمات وجهه-أنا تخرجت في الجامعة الإسلامية في المدينة في وقت الشيخ ابن باز، وذكر أنه من الدفعة أو الدفعات الأولى، وذكر أن الشيخ ابن باز أوصاه أن يدرس التوحيد ويعنى به. قال: وأنا لازلت أعمل بوصية الشيخ ابن باز حتى الآن وحتى أموت. رحم الله الإمام ابن باز، وزاد الشيخ محمداً سدادا في القول والعمل. أخرجت المبلغ وقلت: هذا –من أحد المحسنين-كتبه الله تعالى لمناشطك العلمية والدعوية، وأعجبني هدوءه وتصرفه عندما أخذ المبلغ وشكر ودعا لصاحبه.

وفي اليوم التالي تناولنا الغداء عند رجل كريم عرفت ذلك عنه قبل رؤيته، ومما زادني تأكيدا أننا عندما هممنا بالمغادرة طلب منا تسجيل أسمائنا في سجل كبير رأيت فيه صفحات مملوءة بالأسماء، فأخبرني أنه كلما حلّ به ضيوف طلب كتابة أسمائهم توثيقا للذكرى، بعدما هممنا بالانصراف أوصانا بعدم التأخر والمبادرة بقطع الطريق إلى "قاريسا" قبل الليل وحذرنا من النزول من السيارة لأن هناك حيوانات مفترسه. سرنا دون توقف وكان الطريق يشق الغابة، ولا تسأل كم رأينا من الغزلان بل كم دهس السائق منها، فقلت للسائق: حاول أن تقف عند مرور الغزلان حتى تقطع الطريق. فقال في جوابه: إذا وقفت كلما مر شيء لن نصل إلا متأخرين. وصدق وفقه الله تعالى، فلقد كانت تعبر باستمرار أمامنا وكان بعضها يرتطم في السيارة. ومن لطائف ما أذكر أنه عندما مرّت بعض الغزلان في إحدى المرات واصطدم بعضها بسيارتنا طلبت من السائق التوقف فنزلنا، فرأيت أثر الدماء على مقدمة السيارة، ثم رأيت غزالا صغيرا في حجم العناق قد وقع على الأرض، فحملته إلى داخل السيارة، ووضعته عند قدمي، فتبسم السائق، وقال ما معناه: دع هذا الغزال، وإذا وصلنا هناك فلك مني مائة غزال، وتركته بالفعل. في أثناء السير قابلتنا مخاضة فحاول السائق عبورها فتوقفت السيارة فيها فنزلنا وخضنا في الماء والطين، وأرجعنا السيارة إلى الخلف حتى خرجت، ثم رجع بها السائق مسافة إلى الوراء، ثم انطلق إلى الأمام مسرعا، والجميع في السيارة، لكن المخاضة كانت أقوى من عزيمة السيارة فتمكنت من عجلات السيارة كل تمكن، غابت الشمس فصلينا المغرب والعشاء جمع تقديم ثم قررنا النوم في السيارة، وكانت ليلة لزمنا فيها ثلاثة أمور لم تنفك عنا البتة: الخوف من الحيوانات المفترسة والبعوض والحر. وكأن البعوض تلك الليلة قد أجمعوا أمرهم وشركاءهم علينا –وعودا إلى مجرى الحديث أقول : كنت قد سألت أحد الإخوة الذين كانوا معنا ويعرفون المنطقة عندما وقفت السيارة في المخاضة، فقلت له: كم بقي على الوصول إلى المكان المقصود فقال: قرابة ٩٠-١٠٠كم، الشاهد أننا لزمنا البقاء في السيارة واقترحت عليهم أن نتذاكر بعض الفوائد والقصص والأخبار نتسل بها إلى الصبح لكن النوم سلطان جائر كما قيل فلما أصبحنا وأخرجنا السيارة وسلكنا الطريق بعد المخاضة قابلنا رجلا فسألناه عن المكان الذي نريده فقال بأنه قريب جدا أظنه لا

يتجاوز ٢ أو ٣ كم فقلت لذلك المرافق: كنت أسميك الخريّت أما الآن فأنت الخرتيت؛ أين ٩٠-١٠٠كم من ٢-٣ كم وصلنا "قاريسيا" فاغتسلنا من أثر المخاضة، وبعد العصر ذهبنا إلى مكان الفارين من الحرب في الصومال، هناك رأيت أمرا عجبا جماعات من الناس؛ شيوخ وشباب وأطفال من الذكور والإناث لبسوا لباس الجوع والمرض. قام بعضهم فصفوا خلف بعضهم لأن بعض الإخوة قاموا بتصنيع شراب لهم في حاوية ثم بدؤوا بسقياهم، وكان أولئك المساكين يحملون في أيديهم بعض العلب المعدنية أو البلاستيك، وهي من مخلفات الجمعيات الخيرية التي تقوم بتقديم العون، وقد رأيت بعض أولئك المساكين يحمل بعض العلب الحديدية التي قد صدأ بعض جوانبها، ذهبت مع المترجم نمشي بين هؤلاء، فرأيت منظرين لن أنساهما البتة –بمشيئة الله–رأيت امرأة مضطجعة وعند رأسها صبي صغير يبكي ويحمل بيده ترابا ويضع على رأس أمه التي لم ترده عن فعله، وبجانب تلك المرأة وصبيها رجل هزيل قد جلس على هيئة الاحتباء، فقال لي المترجم: الطفل يبكي من الجوع والأم ولأب كما ترى في أسوأ حالة، رجعنا بعد الجولة فإذا الصبي قد سقط على الأرض وأمه كانت ميتة عندما كان يحثو عليها التراب. ثم رأيت صبيا عمره قرابة الثالثة عشرة ورأيت ساقيه كأنها أقلام من دقتها، وقد أخبرني أحد العاملين في الجمعيات الخيرية أن هذا الصبي قد تمكن منه مرض السل كل تمكن. عندما أردنا الرجوع إلى "نيروبي" ـ عاصمة كينيا ـ اتفقنا أن يكون الرجوع عن طريق طائرة، –وشركات تأجير الطائرات هناك كشركات سيارات الأجرة –تم الاتفاق على ذلك وخرجنا إلى المطار –مجازا–وهو عبارة عن خط أسفلت في أرض منبسطة وذلك الاسفلت قد أكل الدهر عليه وشرب. بعد فترة يسيرة أقبلت طائرة صغيرة ثم هبطت، فلما قاربت الأرض ارتفعت قليلا مرة أخرى، فسألت أحد المودعين لنا، فقال: إن هذه الطريقة مألوفة، فهذا النزول يريد به قائد الطائرة أن تفزع الحيوانات من الأبل والبقر والغنم الموجودة على المدرج من صوت الطائرة فتهرب بعيدا عن المدرج. ركبنا تلك الطائرة الصغيرة –٧ مقاعد تقريبا– كنت بجانب الطيار وكانت الأرض تحتنا جنة خضراء يتخللها خطوط بيضاء تستقيم تارة وتنحني تارة أخرى. تلك الخطوط هي مجموعة من الأنهار الكبيرة والصغيرة. في أثناء ذلك تلبدت الغيوم وأمطرت السماء، وطائرتنا تهتز، أخذ الطيار يرفع صوته في أثناء اتصاله بالمطار، ثم أخذ يكرر كلمة كأنه ينادي، بعد ذلك خلع السماعات ووضعها على فخذيه، رأيت توتره وشدة انفعاله. الإخوة الأكارم غشاهم النعاس، بل النوم وهنيئا لهم، كان الطيار أولا يلتفت إلي، وأنا احاول أن أخاطبه ببعض المفردات التي أحفظها من اللغة الإنجليزية. لكن لما رأيت القوم –الطيار–لاوُدَّ عندهم، أخرجت ورقة وكتبت وصيتي، ومن ضمن الوصية أن مكتبتي تنقل إلى ثانوية تحفيظ القرآن، وهذا سابقا –لما كانت صغيرة–وأما الآن فوصيتي أن المكتبة تكون بعدي تابعة لمكتبة الإمام ابن القيم في جامع شيخ الإسلام ابن تيمية، وتكون في مكان واحد، والناظر عليها الشيخ فهد الغراب. كتبت الوصية ثم كتبت اسمي باللغتين العربية والإنجليزية، وكنت أفكر أين أضع الوصية؟ فرأيت مكانا مناسبا في باب الطائرة فأدخلت الوصية في مكان بين طبقتين من المعدن وسبب اختياري لذلك المكان أنني قلت في نفسي: في حالة سقوط الطائرة فإن هذا المكان قد لا تصل إليه النار وتبقى الوصية

محفوظة كاملة عند العثور عليها لكن بتوفيق الله وصلنا المطار ولأياً وصلنا المطار بعد تعذُّبِ عندما وصلنا المطار أخذ الطيار يدور حوله لانقطاع الاتصال، وبعد عدة دورات نزل بحمد الله تعالى.

زرنا جامعة من الجامعات هناك وركب معنا أستاذ ـ لم أرتح لرؤياه ونظراته ـ وكان الاتفاق أن يذهب بنا ذلك الأستاذ إلى مسجد يحتاج إتمام إنشاء وفي أثناء الطريق تكلم ذلك الأستاذ مع السائق همسا ـ سمعه المترجم لقربه منهم فرأيته – المترجم –تبسم متعجبا ـ فسألته ساعتها عن سبب تبسمه فكأنه أراد أن يصرفني عن الموضوع تلك اللحظة فهمت مراده. ولما حانت لي به خلوة قال لي: أن الأستاذ سأل السائق قائلاً له: إن كان هؤلاء وهابية فاذهب إلى المكان الفلاني فالمسجد الذي هناك ليس فيه ضريح وبالفعل ذهبنا إلى مسجد تحت الإنشاء ليس فيه ضريح وهنا أقول –وإن كان هذا الأستاذ ليس قاعدة مطردة –أنه ينبغي لمن أراد أن يدعم أو يقيم مشروعا خارج بلده أن يتثبت في السؤال عن القائمين عليه. فإن ذلك أدعى لنصرة التوحيد والسنة وأبعد من دعم الشرك والبدعة ولو قدِّر أنه اجتهد في السؤال ثم لُبِّس عليه أو أخطأ بعد تحري فهو على نيته ولعله يدخل تحت حديث المتصدق على سارق وعلى زانية وعلى غني ونص الحديث { عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على زانية قال اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون تصدق على غني قال اللهم لك الحمد على غني لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق على سارق فقال اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق فأتي فقيل له أما صدقتك فقد قبلت أما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق يستعف بها عن سرقته } ومن لازم القول هنا أن يسعى المسلم جاهداً لإصلاح ما يستطيع من الخلل الحسي والمعنوي الذي يراه في المدعوين ولا يتضجر ويترك دعوة من تلوثوا بقوادح عقدية مهما كان نوعها إذا استطاع إلى دعوتهم سبيلا .

مما أراه من لازم القول هنا أن كثيرا من المناشط التي زرناها تعنى بتدريس القرآن الكريم تلقينا وتحفيظا وهذا هو الأبرز من مناشطهم برعاية بعض الجمعيات الخيرية.

وتعليم القرآن وحفظه من أعظم المكاسب لمن قرن العلم بالعمل.

لكن هذا بحد ذاته لا يكفي بل ليس بالأمر الأهم، وبخاصة عند من كانت عقائدهم ملوثة بالقوادح العلمية والقولية، ولذا من الخلل في بث الوعي أن نعنى بتعليم شاب أو رجل القرآن الكريم ويستمر هذا الأمر معه سنوات والمسكين واقع في أوحال البدع يخوض في حياضها صباحه ومساءه هذا والله من الخلل العظيم في نشر الوعي ويزيد هؤلاء المساكين الحريصين على الخير تشبثا بما نشئوا عليه من البدع إذا جاء بعض المتابعين والمشرفين على العمل الخيري عندهم وأقاموا حفلا أو أكثر لدارسي القرآن وحافظيه و وزعوا عليهم الجوائز وجعلوا إقامة مثل ذلك الحفل ديدنا لهم في كل عام مرة أو مرتين دون أن يتعرضوا لنصحهم والترفق بهم في بيان ما هم عليه من الخطأ العقدي وغيره .

ويقال هاهنا أيضا من باب التأكيد لما سبق إن من سلبيات العمل في المؤسسات العلمية. أن يتولى أمرها شخص ليس له عناية بالعلم ناهيك عن عدم اهتمامه واستشعاره لأثر الجهود العلمية الدعوية مقروءة أو مسموعة أو مرئية فمثل هذا كمثل بئر معطلة في قصر مشيد.

أليس من الصائب ـ والمصائب جمة ـ أن ترى مدرسا –فضلا عن الدارسين– قد علق تميمة أو عرفت عنه تعظيم ولي والتمسح بضريحه، ومع ذلك له في التدريس أو الدراسة سنين عددا، هذا المسكين لو تلطف الزائر لهم بالنصح وتحبب إليهم في جلسة واحدة لتغير أمره وزال خلله العقدي وشكرك وفرح بتوجيهك بل ستراه مسارعا إلى دعوة آل بيته وعشيرته كما حدث بعض أهل العلم الناصحين لمثل أولئك.

ـ مما ينبغي التنبيه عليه بل والتحذير منه التضجر والسخط والشدة من بعض الغيورين الذين يزورون مثل أولئك إذا رأوا فيهم أو سمعوا منهم قوادح عقدية فيقال لأولئك المتضجرين الساخطين رفقا بالأقداح أيها الأكارم هؤلاء رضعوا ألبان تلك القوادح العقدية فشبوا وشابوا عليها، فليس من المنهج العلمي الدعوي السليم الشدة عليهم فربما زادهم من السنة نفورا وإلى البدعة لزوما. فمقاصد الشريعة تأبى ذلك بل تحذر منه ومن رام أن يزداد بصيرة في هذا الشأن فلينظر في كتب السياسة الشرعية ومن أفضلها كتاب السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية والطرق الحكمية للإمام ابن القيم ومن خلال مرئياتي القاصرة فأهل الخير في تعاملهم مع أولئك الناس الذين تلوثت عقائدهم ينقسمون في التعامل معهم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: قسم يعنى بتدريس القرآن وقد يضيف إليه شيئا من الآداب العامة كحق الجار والضيف والطريق ولا يتطرق إلى الأمور العقدية وبخاصة البدع التي عندهم إطلاقا، بل قد لحظت في غير دولة سافرت لها عدم رغبة القائمين على التعرض للأمور العقدية ولو برفق.

الثاني: قسم يتضجرون لأول وهلة وقد يصاب بعضهم بالإحباط ناهيك عن ذمه لأولئك المدعوين وقد يشتد معهم فيزيد أمرهم وأمره سوءا كما أشرت إلى ذلك آنفا.

الثالث: يعرضون خطورة أثر البدع على أصحابها برفق وتحبب للمخاطبين فسلكوا بذلك سبيلا معبدا بالحكمة جمعوا فيه بين تبصير أولئك بالخطأ مع الحرص التام على مراعاة مشاعرهم فكان من ثمرة تلك المقدمات الدعوية الحكيمة نتائج إيجابية عظيمة. شاهد المقال: أن طريقة القسم الثالث كان عاقبة أمرها قبولاً وارتياحاً بل توادر الأسئلة التي يشعر الداعي لهم بحرصهم التام على إزالة كل شبهة كانت أو يمكن أن ترد على أذهانهم بعد هذا، وهذه النتيجة قد أخبر بها من سلك مع مثل أولئك مسلك الحكمة الشرعية لا الحكمة العاطفية.

وبما أن الحديث عن المجال الدعوي في الخارج فأضيف إلى ما سبق ذكره شيئا سمعته ورأيته وهنا محط ركابه. زرت الأندلس بصحبة أبي يزيد عبدالله الهدلق ودخلناها يوم الجمعة وقد استقبلنا مدير مركز إسلامي صغير في "ملقا " وكان رجلا فاضلا وطلب مني أن

أخطب بدله فلما وصلنا إلى باب المسجد ـ بعد تأخر ـ إذا برجل قد صعد المنبر واستقبل المصلين وسلم عليهم جلسنا مع المصلين وقد كان موضوع خطبته غريبا كل الغرابة ولا فائدة فيه للحاضرين وبخاصة أني جلست مع بعضهم وهم يجهلون أحكاما جذرية في الطهارة والصلاة ناهيك عن الاعتقاد، كان فحوى كلام خطبة ذلك الخطيب وفقه الله إلى سداد القول والعمل يدور حول وجه الشبه بين رئيس دولة سابق (ج) ورئيسها الحالي (ح) .

المملكة العربية السعودية – الرياض - جوال:٠٥٠٥٤٦٩٩٤٦ alsadhan7@gmail.com